

قناص بغداد

تأليف

د / محمد عبد الحكيم

للثقافة والعلوم

اسم الكتـــــاب : قناص بغداد .

التــــــأليـف : محمد عبد الحكيم .

الصف التصويرى : الندى للتجهيزات الفنية .

عـدد الصـفحـات : 52 صفحة .

قيـاس الصـفـحـة : 10 × 16

التــوزيع والنشــر : دار البشير للثقافة والعلوم .

تليفون 040/3316316 ـ 0167467492

Darelbasheer@hotmail.com

Dar_elbasheer@yohoo.com

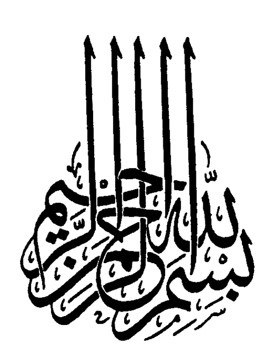
الإيداع القــانونى : 2007 / 11749

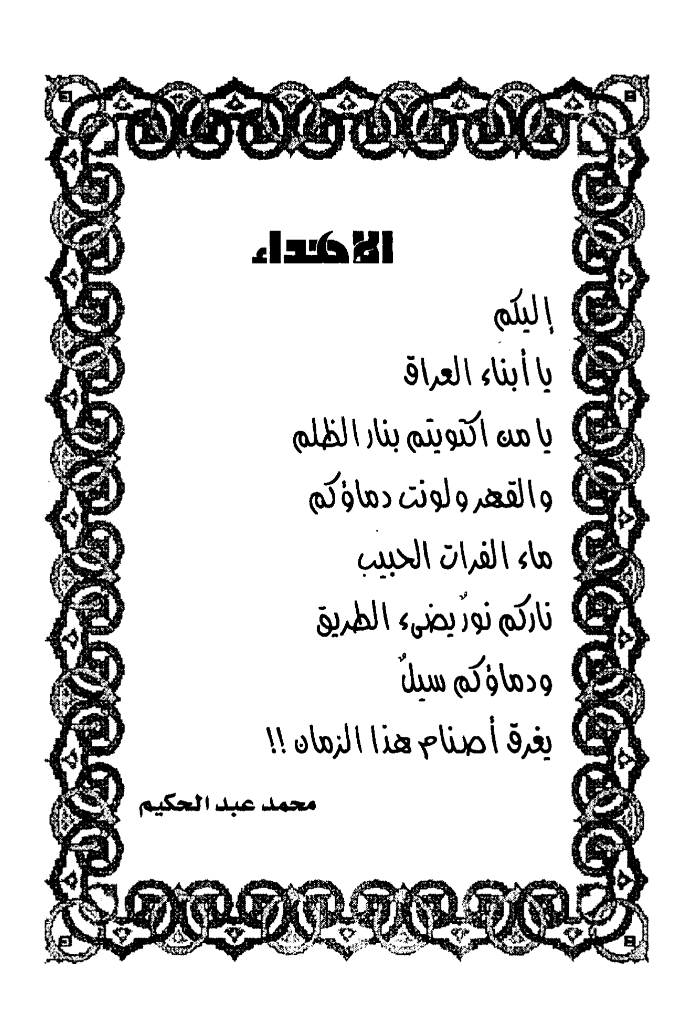
التــرقــيم الدولى : 6 - 181 - 278 - 977 - I.S.B.N

1429 هـ

2008 م

قناص بغداد


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إليكم

يا أبناء العراق

يا من اكتويتم بنار الظلم

والقهر ولونت دماؤكم

ماء الفرات الحبيب

ناركم نورٌ يضيء الطريق

ودماؤكم سيلٌ

يغرق أصنام هذا الزمان !!

محمد عبد الحكيم



أرض الشهداء

في جنات

الخلد يلتقون .. يتعارفون..
في أرض أورثها الله لعباده الشهداء
والمجاهدين.. في ظل ممدود.. علي
سُرر متقابلين يتذاكرون جهادهم، وأهوالاً
خاضوها واكتووا بنارها في الدنيا، سنعيش
معهم ملاحم الحق.. ونخوض أتونها الملتهب
.. في كل العصور وكل البلدان سنقابل اليهود
في أكناف الأقصي، ونتحدي الأعور الدجال،
سنشهد الملحمة الكبري .. ونفتح البلاد
البعيدة، لتعلو راية الحق - جلّ وعلا -
ويظهر دينه علي الدين كله.. ولو
كره المشركون..

(1) هل رأيت بؤساً قط ؟!!

أيكتان مكسوتان بأوراق السندس ، مدهامّتان بلون أخضر مائل للسواد ، من بينهما ينبثق الجدول الرقراق بمائه الصافي ، وخريره المداعب للنفوس بنشوة لا توصف ، يتدفق نحو الغدير معانقاً إياه . . كغائب عاد إلي أحضان أحبابه . . بعد طول غياب! أسند (أبو سعيد) ظهره إلي فرش بطانته من إستبرق . . وقد أحاط كتفي ولده (سعيد) بذراع ، وبذراعه الأخري رفع إلي شفتيه كأساً من خمر لذة للشاربين . . أفرغها في فمه دفعة واحدة ، فعادت ملأى كما كانت في لمح البصر . .

نظر الوالد إلي ولده في حب ، وابتسم قائلاً : ـ

ـ « ما أشد غباء الأشقياء ؟! يتركون هذا الشراب اللذيذ من أجل خمر الدنيا الخبيثة . . فإذا انقضت أيام الدنيا ابدلوا شرابًا من حميم وغساق !!»

هز (سعيد) كتفيه في عدم اهتمام : ـ

« لقد نالوا ما يستحقون في الدارين يا أبتِ . . وما ربك بظلام للعبيد !!

أردف أبوه قائلاً :

« وحتى لو كانت خمر الدنيا لذيذة كهذه ـ وهو المحال ـ هل

يذكرون اليوم لها طعمًا ؟! هيهات . . قد أنساهم ما هم فيه كل لذة ومتعة من متع الدنيا » .

وضحك الابن مكملاً حديث أبيه : ـ

« . . كما أنسانا ما نحن فيه من النعيم كل حرقة ولوعة ذقناها في الدنيا . . »

أطرق (أبوسعيد) لحظة في صمت ، ثم هز رأسه قائلاً :

« نعم يا ولدي . . . لقد قتلت يوم قتلت في الدنيا وأنا أحوج ما أكون إليك . . فاكتوى قلبى بنار ظننت جرحها لا يندمل .

ربت (سعيد) على كتف والده في حنان وهو يقول :

« لكنها قد اندملت الآن . . ذهبت النار والجراح . . وبقى النعيم والفوز العظيم . . وها أنا ذا بين يديك إلى الأبد . . (فهل رأيت بؤسًا قط ؟! » .

وضم الوالد ولده بين ذراعيه قائلاً في ابتسامة تندت بالدموع :

« لا والله . . ما رأيت بؤسًا قط !! » .

❊ ❊ ❊

جوادان كأجمل ما تكون الجياد رشاقة واختيالاً ، يحملان

الصاحبين (أحمد الورداني) و (عمر الأزرق) . . وينسابان في ربوع الجنان، كعصفورين لا تحدهما السماء ، يبحثان عن بطل اليوم . . قناص بغداد الذى وعدا الإخوان بقصته ، فإذا هما يشهدان الوالد وولده في هذا العناق الحميم، وما هي إلا لحظة حتى لحق بهما « سالم حمدان » . . نقيب العراقيين وأميرهم يوم الملحمة ، ترجل الثلاثة متأملين المشهد المؤثر ، كان (سالم) أول من تكلم مشيرًا إلى المتعانقين :

« هذا القناص أبو سعيد الهمذاني . . وهذا ولده سعيد . . »

وسمع الوالد والولد كلماته ، فالتفت إلى الإخوان الثلاثة ، وابتسما فأضاء وجهاهما كبدرين ظهرا في ليلة واحدة ، رفع (عمر الأزرق) حاجبيه ومط شفتيه قائلاً :

« لا يدخل الجنة إلا (سعيد) . .

والآن . . هل لأحد أن يخبرني أيهما الولد . . وأيهما الوالد ؟!» .

وضحك الجميع للدعابة . . لقد كان الكل في شرخ الشباب في الثالثة والثلاثين ، لا فرق في ذلك بين الولد والوالد . . وإن ذلك لعجيب لو أنه حدث في الدنيا ، أما هنا في جنة الفردوس ، فهو أمر طبيعي لا غرابة فيه !!

* * *

بعد لحظات كان الإخوان متكئين على سررهم تحت شجرة الخلد، وتشبع الجو برائحة المسك المنبعثة من تربة الجنة، بينما راح (أبوسعيد) يعبث بحبات من اللؤلؤ المنثور ، يضرب بعضها ببعض ، ثم يلقى بها في غير اهتمام ، فما هي اليوم إلا حصى !!

وكالمعتاد ، بدأ (أحمد الورداني) حديثه عندما اكتمل عقد الإخوان المتقابلين ، وأنشأ يقول :

« موعدنا اليوم مع قصة من ضفاف الفرات الحبيب ، وزمن من أزمان الدنيا الصعبة ، المشبعة بالدم ، اكتوى بنار أتونها إخوانكم ، ليخرجوا منها ذهب خالصًا لا تشوبه الشوائب .

وابتسم سالم وأبو سعيد للمديح . . وأدرك الورداني ما دار بخلديهما ، فقال : مستبقًا « لا حرج في المدح اليوم . . قد كنا (نحسبكم كذلك) في الدنيا ، أما وقد أكرمتم بمثوى الشهداء فلا حسبان ، بل يقيس بفضل الله وكرمه ومثوبته » . .

ولاحت البسمات حلوةً على الشفاه ، وكأن ذكر الفضل والمثوبة قد زاد القلوب امتنانًا وشكرًا لصاحب الفضل ـ جل وعلا ـ وتطلعت العيون إلى بطل اليوم . . ليبدأ قصته .

❋ ❋ ❋

(2) محارب قديم :

صباح جديد . .

أسند (أبو سعيد) ظهره إلى كرسيه الهزاز المفضل ، وراح يرتشف رشفات صغيرة من فنجان قهوته الساخن ، يديرها في فمه بلذة وتأتي قبل أن يبعث بها إلى جوفه ، كان الصباح يتنفس أنفاسه الأولى ، يوزع قطرات الندى على زروع(أبي سعيد) الصغيرة ، وأزهاره الحمراء والصفراء المتناثرة في حديقته التي يطل عليها من شرفته الزجاجية ، كانت حديقة صغيرة لا تتعدى مساحتها بضعة أمتار ، لكن المساحة التي شغلتها من ذهنه وتفكيره كانت أكبر من ذلك بكثير .

أطل (سعيد) بوجهه من فوق كتف والده ، وطبع على جبينه قبلة ، التفت إليه الوالد في حب فوجده قد حمل كتبه واستعد للمغادرة . . بادره قائلاً : -

- « ولم العجلة يا ولدي ؟ لا زال موعد المحاضرة بعيدًا !!

ورد (سعيد) باسمًا ! .

« أنت لا تعرف حال المواصلات يا أبي . . لا شيء يسير كما تتوقعه في هذه الأيام !! » .

وهز الأب رأسه قائلاً :

« أجل يا ولدي . . حياتنا تسير بالمقلوب !!

لا شيء يحدث كما ينبغي أن يحدث . . »

وبعد لحظة رفع رأسه كمن تذكر شيئًا : « كن حريصًا يا سعيد . . ابتعد عن كل ما يريب . . إذا رأيت حادثًا أو انفجاراً فابتعد عنه فوراً فربما كان مقدمة لانفجار آخر . . » .

ورد (سعيد) محتفظًا بابتسامته :

« لا يغني حذر من قدر يا أبي . . ومع ذلك اطمئن . . سأكون حذرًا . . ولن أستمع إلى من يدعونني للاشتراك في المقاومة . . ولن أقوم باستفزاز أي من جنود الشرطة أو جنود الاحتلال . . ولن . . » .

ومضى (سعيد) يردد وصايا أبيه قبل أن يكملها . . كطفل يردد ما تم تلقينه إياه . . ليطمئن أبوه على حفظه للوصايا التي لا يفتأ يوصيه بها ليلاً ونهاراً . . كان (سعيد) هو كل ما تبقى له في الدنيا ، هو ولده الوحيد . . يذكره وجهه الحبيب بوجه زوجته التي رحلت عن الدنيا ، (أم سعيد) . . حبيبته التي قضت نحبها من سنوات . . وهي توصيه بولدهما الوحيد ، كان (سعيد) حينها في الثانية عشرة . . صبي يفهم بالكاد ما تعنيه ظلال الموت التي تخيم على بيته ، ها هو الآن يكبر . . فلا يفارقه ذلك الشبه بوجه أمه . . يكاد ينهي دراسته الجامعية ، ولا عمل

لأبيه ـ الرقيب المتقاعد من جيش العراق الذي كان ـ سوى العناية به ، ورسم الخطط والأحلام لمستقبله المشرق . . ودراساته العليا في بلاد الغرب . . وزواجه المشهود . . و . . و . . . وكأن حياة (أبى سعيد) قد صارت دائرة تدور حول مركز واحد . . أو كوكب يطوف بشمسه التي لا حياة له دونها . .

ودع (سعيد) أباه ، ذلك الذي أنهى فنجان قهوته ، وقام ـ كالمعتاد ـ ليعني بأزهاره وزروعه المتواضعة ، بينما راح الابن يسأل نفسه ذلك السؤال الذي لا يفتأ يجول في خاطره ، فلا يجرؤ أن يبوح به لأبيه : « كيف يطيق والده ـ المحارب القديم . . القناص الشهير بوحدة القوات الخاصة . . ذلك الذي خاض حروبًا تشيب لها الولدان ـ . كيف يطيق أن يجلس هكذا مسترخيًا لا عمل له سوي سقى الأزهار ، بينما تموج الدنيا من حوله بالفتن والأحداث الجسام ، كيف يطيق أن يقعد عن نصرة بلاده ، وطرد الغاصب المحتل من فوق ترابها ؟! أين بندقيته (الزرقاء) الشهيرة التي تحدث بها الأعداء والأصدقاء ؟! أليس اليوم من أيامها ؟ . . أهو الخوف ؟! وهل عرف الخوف لقلبه طريقًا في سالف الأيام ؟! وهل يجوز أن يكون بطلاً مغواراً في حروب إيران والكويت ـ وهم إخواننا المسلمون ـ ثم لا يكون شيئًا حين يدوس الأمريكان بلاده ؟! أم أن خوفه على ولده قد فاق خوفه على نفسه ؟! . . أيكون هو السبب في قعود والده عن الجهاد

والمقاومة ؟! وهل من الصواب أن يقعد الإنسان عن واجبه خوفًا على أحبابه مهما كانت منزلتهم عنده ؟!

راحت الأفكار والأسئلة تتتابع على ذهن (سعيد) حتى كَلَّ من الأسئلة ، ولم ينقذه من تيارها إلا الحافلة الصغيرة التي توقفت بالقرب منه ، والوجه الباسم الذي أطل من نافذة المقعد الأمامي وأفسح له مكانًا إلى جانبه . . إنه (سالم) ، صديقه الأقرب إلى قلبه . . وأحد الثوار المنتشرين في الجامعة . . أولئك الذين يحذره منهم والده !!

❊ ❊ ❊

صباح جديد . .

. . و (رغد) تزخرف أشعارها المختارة . .

بخطها الجميل . . ورسومها الناطقة . .

« لا زلت أرفض أن أموت اليوم حيًا . .

كلنا موتى

وليس الآن للموتى حياة »(❊)

كانت حرارة جسدها قد انخفضت أخيرًا ، بعد ليلة قضتها في صراع مع الحمى . . أطلت والدتها (أم سالم) من باب

(❊) من أشعار فاروق جويدة .

الغرفة في حذر . . تظنها نائمة ، فألفتها جالسة بسريرها تكتب وتزخرف ، اقتربت منها . . ومن خلفها الصغيران (أحمد وعلى) يتلصصان ، جسّت جبينها في حنان ، وربتت على كتفها قائلة : ـ

« أما الآن الأوان كي تنامى قليلاً . . سوف نحصل على عذر طبى ولن تذهبى إلى المدرسة حتى تتعافي » .

وابتسمت (رغد) فأضاءت ابتسامتها وجهها المتعب ، وقالت : « لا تقلقى يا أماه . . لقد زاولنى المرض بفضل الله ـ عز وجل ـ

وحانت من الأم التفاتة نحو أوراق صغيرتها ، قرأت الكلمات . . وصعب على ذهنها البسيط فهمها . . فتغضن جبينها وهي تسأل :

« وكيف يموت المرء حيًا ؟! » .

سمع سؤالها بكرها (سالم) الذي دلف إلى الغرفة في هذه اللحظة ، تبادل مع شقيقته الحبيبة ابتسامة ، وأجاب على سؤال أمه قبل أن تنطق (رغد) .

« الذل يا أماه موت . . والصمت موت . . » .

وأكملت (رغد)

« وليس الآن للموتى حياة . . ليس لمن اختار الموت أن يطلب الحياة . . »

هزت الأم رأسها ، ولم يبد عليها الفهم لما يقال ، كانت امرأة حنونة بسيطة لم تتلق حظًا من التعليم ، ولطالما عجزت عن فهم حوارات الأدب والشعر بين ولديها (سالم) و (رغد) . . ولكنها كانت سعيدة بولعهما الثقافي . . وكانت تعد ذلك علامة على النبوغ والعبقرية ، أما (سالم) فقد طبع على جبين أخته قبلة حانية ، وهو يقول :

« لقد تعافيت بحمد الله . . أليس كذلك ؟! ولكنك ستمضين أيامًا في البيت لتستعيدي عافيتك ، لا بأس من الغياب عن المدرسة أيامًا قليلة . . وضحكت (رغد) قائلة : « أجعلتها أيامًا ؟! لا أظن الأمر يطول أكثر من يوم - إن شاء الله - » .

ولم يرد (سالم) ، كان في قرارة نفسه سعيدًا ببقائها في البيت ، فهذا يريحه - على الأقل - من عبء صحبتها إلى مدرستها الثانوية كل يوم ، لم يكن (سالم) يتبرم بصحبة شقيقته لكنه كان يحمل هم نظرات جنودهم عند المعبر ، وهو لا يطيق أن يقترب أحدهم من أخته بدعوى تفتيش حقيبتها المدرسية ، وكثيرًا ما منع نفسه بالكاد من ارتكاب حماقة قد تفضي إلى مقتله هو وأخته ، لقد صارت الرجولة باهظة التكاليف هذه الأيام . . ولكن . . لا بأس . . سيأتي يومهم - بإذن الواحد القهار . .

طبع (سالم) قبلة على جبين والدته ، وأخرى على يد والده . . عم حمدان العجوز داعب أخويه الصغيرين قبل أن

يغادر ، كظم غيظه حتى يعبر المعبر ، وكأن عيون الجنود تسأل عن أخته (لم لم تأت اليوم ؟!) . . لم يفلح في إخفاء نظرة الغضب في عـينَيـه ، لكنهم تركـوه . . اسـتـقل الحـافلة من أول الخط ، وجلس ـ كالمعتاد ـ في المقعد الأمامي ، لم يفلح في إخراجه من أفكاره المشتعلة سوى وجه حبيب إلى نفسه ، إنه (سعيد) صديقه الأقرب إلى قلبه ، أفسح له مكانًا إلى جانبه ، وانطلقت الحافلة في طريقها إلى الجامعة ، تبادل الصديقان حديثًا وديًا . . وقرب منتصف الطريق ، كانت الحافلة تسير منعزلة وقد خلا الطريق من حولها ، وتوقفت عند كمين للشرطة . . لمح (سالم) بحسّه المرهف خزانة لرشاش تدفع بقوة ، أتبعت بسحب لإبرة الإطلاق . . توجس (سالم) شراً ، حاول أن يتشبث بصديقه (سعيد) ليمنعه من مغادرة الحافلة ، لكن يد الجندي الذي سحبه إلى الخارج كانت أقوى منه . . فاستسلم (سعيد) ، وترجّل ككل الركاب عدا (سالم) الذي تباطأ في تنفيذ الأمر . . وحدث كل شيء في لحظات . . !!

❊ ❊ ❊

(3) الارهابيون !!

. . وكانت (رغد) تصفف شعرها الفاحم المبتل أمام مرآة الحمام الصغيرة ، يطل منها الوجه الجميل الشاحب من أثر الحمى . .

وغير بعيد من بيتهم ، كانت نقطة التفتيش تعج بحركة

غريبة، فهذا (چورج) . . بشعره الأحمر ووجهه المليء بالنمش، يروح ويجيء . . يخفي وجهه في الجريدة هاربًا من سخرية زملائه . . يتناقلون قنينة الخمر فيما بينهم، ويتضاحكون مؤكدين جبنه، بل وعدم قدرته على معاشرة النساء . . حين بلغوا هذه النقطة الأخيرة، رفع (چورج) رأسه متحديًا . . وردد متلعثمًا ـ كعادته في الكلام ـ . . .

« ومن أدراك أيها الوغد ؟! »

وردد (ميشيل) كلماته مقلدًا طريقته في الكلا م بين ضحكات الجميع، بينما رد (مات) قائلاً : « وهل لذلك تفسير آخر . . تلك الفتاة الرائعة تنتظرك . . لم تخرج من البيت اليوم . . بينما خرج شقيقها الذي كنت تخشى أن يسبب المشاكل . . كل هذا وأنت قابع في مكانك تقرأ الجريدة وكأن ما يجري في عروقك ماء بارد بدلاً من الدم ؟! »

انتفض (چورج) من مكانه قائلاً :

« الأمر ليس كذلك أيها التافه . . أتظن أنني كنت أمزح ؟! »

ورد (چاك) ضاحكًا : « وماذا كنت تفعل إذن ؟ لقد ملأت الدنيا ضجيجًا عن مغامراتك مع الفتيات وعن استعدادك لفعل أي شيء يمكنك من تلك الفتاة . . فلما حانت الفرصة جبنت . . وجلست تختلق الأعذار لتهرب من ادعاءاتك »

كـان (چورچ) قـد جلس مـرة أخـرى . . ونكس رأسـه وهو يقـول : « أنا لا أهرب . . لكن الأمر ليس بهذه البساطة . . إنها لن تقبل . . أولئك العربيات لسن كفتياتنا ، ثم هناك أبوها . . وأمها . . »

ورد (مات) على الفور : ـ

« ومن قال إن الأمر يتعلق بموافقتها أيها الجبان ؟! وماذا يستطيع أبوها ـ ذلك الأعمى ـ أن يفعل ؟! إننا ها هنا نأمر فنطاع . . وليس لمن عصى أمرنا سوى الموت . . » .

رفع (چورچ) عينيه محدقًا في عيني (مات) . . فألفى فيها بريقًـا غـريبًا . . بدت كعيني وحش ينقض على فريسته . . وللحظة ما . . جال في صدره مزيج غريب من المشاعر . . وكأنه يخاف هاتين العينين . . ويقدس ـ في ذات الوقت ـ بريق القوة المطل منهما . . يجب أن يكون قويًا . . هب واقفًا وهو يردد من بين أسنانه . .

« فليكن إذن !! » . .

وكانت رغد قد انتهت من تصفيف شعرها ، وعادت تزخرف قصاصات الشعر الذي تنشده .

* * *

حدث كل شيء في لحظات . .

كان (سالم) قد صار وحده في الحافلة ، فقد نزل الجميع بما فيهم السائق عن يساره ، (وسعيد) عن يمينه ، وكان الجندي يمد يده ليجذب (سالم) إلي خارج الحافلة ، في تلك اللحظة لمح (سالم) في المرآة شرطياً في العقد الخامس من عمره، يحمل شاره (نقيب) ، لم ينس (سالم) سحنته بعدها أبداً ، كان يشير بيده إلي واحد من جنوده ، فما كان من الجندى المتحمس إلا أن كبّل يدي (سعيد) خلف ظهره . . وغرس فوهة مسدسه في مؤخرة عنقه، وأطلق النار . . فهوي (سعيد) إلي الأرض، وهوى معه قلب صديقة (سالم) في بئر من الحزن والغضب . . لا قرار له . . حانت التفاته من الشرطى نحوه، فبدا وجهه الأسمر المكتز كوجوه الكلاب الغاضبة . . وأشار بيده إشارة سريعة كانت تعني ـ بلا ريب ـ نهاية لحياته ، وبحركة خاطفة ـ لا يدري (سالم) كيف خطط لها ـ دفع الجندى الواقف عند باب الحافلة بقدميه دفعة ألقته أرضًا ، وقفز إلى مقعد السائق الخالى ، كان المحرك لا يزال دائرًا ، ضغط (سالم) دواسة البنزين بكل قوته ، وقد وجه عصا التحكم نحو الخلف، كان قاصداً ذلك الكلب الشرطى ليدهسه . . لكن الرجل ألقى بنفسه جانبًا فلم تصب الحافلة سوى قصبة ساقه ، وانهالت الرصاصات من كل جانب نحو (سالم) . . لتحطم زجاج الحافلة . . لكن (سالم) قد أعاد توجيه العصا نحو الأمام . . وانكمش على نفسه في

أسفل المقعد موجهًا ـ بالكاد ـ مقود الحافلة لتستكمل طريقها التي قطعها الأوغاد . . وبعد أن قطعت الحافلة بضعة مئات من الأمتار ، أخرج (سالم) رأسه . . وضاعف من سرعة الحافلة مستغلاً الهرج والارتباك الذى ساد بين صفوف الجنود . . وقائدهم النقيب الذى كان حائرًا بين إتمام (مهمته) القذرة التي ـ بدأها ـ وبين مطاردة ذلك الشاب الهارب ، فراح يوزع الشتائم والسباب على جنوده ، وخاصة ذلك الذي تسرع بإطلاق النار قبل أن يتأكد من خلو الحافلة من الركاب ونزولهم جميعًا إلى الأرض ، رغم أنه هو الذي أشار إليه بذلك غير منتبه لوجود ذلك الشاب في الحافلة ، وعندما انتهت (المهمة) ، كان هناك اثنا عشر جثة ملقاة على حيد الطريق . . هي كل ما تبقى من ركاب الحافلة المساكين ، وقد تلقى كل منهم رصاصة بمؤخرة رأسه . . لا يدرى لم كانت من نصيبه . . بل ربما لا يدرى الذي أطلقها لماذا فعل .

. . وكان (أبوسعيد) قد انتهى من سقى أزهاره ، وشرع يجهز طعام الغداء له ولولده الحبيب . . سوف يُعدُّ له وجبة من الدجاج المشوى الذي يفضله ، ويجب أن تكونَ ساخنة حين يعود (سعيد) من الجامعة . .

ولكن (سعيد) لم يعد أبدًا !!

❊ ❊ ❊

بعد ساعات قليلة ، كان ذلك النقيب الأسمر يقف مستخزيًا أمام مسئول المخابرات (داڤيد ماكنزي) ، ذلك الأمريكي ذي العينين الزرقاويين الغادرتين كعيون القطط . . والقرط الذهبي المتدلي من أذنه اليمنى [1] ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة . .

« إذن . . فقد قتل (الإرهابيون) اثنى عشر راكبًا في الحافلة ، وفـرّ (منهم) شاب كان ضمن الركاب ، يبدو أن هؤلاء (الإرهابيين) لا يتمتعون بخبرة كافية في مثل هذه الأعمال !! »

ونكّس (منذر الربيعى) رأسه في ذل ، لا فائدة من الكذب هذا الوغد الأمريكى يعلم بكل شيء بمجرد حدوثه ، بل ربما قبل أن يحدث . . حاول أن يقول شيئًا لكن الكلام قد ارتجّ عليه فلم يدر ما يقول . . ودوت ضحكة الأمريكى القبيحة ، ألقى بالقلم من يده وأسند ظهره إلى مقعده الوثير مشبكًا كفيه خلف رأسه . . وهو يقول باستخفاف :

« لا عليك أيها النقيب . . إنك تقوم بعمل جيد على أي حال ، وحتى إذا كان ذلك الشاب ثرثارًا ، فلن يكون لروايته قيمة ، أنت تعلم أن الإرهابيين قد اعتادوا ارتداء زي الشرطة هذه الأيام !!

---

(1) التقينا بشخصية (داڤيد ماكنزى) من قبل في قصة (الرايات السود) ، حين كان يساعد في محاصرة إخواننا في الشيشان وهو اليوم على أرض الفرات ، راجع العدد الرابع من هذه السلسلة .

وسكت لحظة ليشعل طرف سيجاره الفاخر ثم أردف : « يجب أن نفكر في الخطوة القادمة ، لقد قامت الميليشيات الشيعية بقتل اثنى عشر راكبًا سنيًا مدنيًا بريئًا وهم يستقلون حافلة مستأجرة ما هو رد الفعل المناسب في رأيك ؟! » .

واستعاد (منذر) رباطة جأشه ، وابتسم ابتسامة خبيثة وهو يقول :

« ربما تفجير في سوق للشيعة . . أو حتى مسجد من مساجدهم . . » .

رفع ماكنزى حاجبيه ، وهز رأسه قائلاً :

« هذا تفكير لا بأس به ، أرجو أن يفكر الإرهابيون بالشكل ذاته . . وإذا لم يفعلوا . . »

ولم يكمل (ماكنزى) عبارته ، فسارع (منذر) إلى إكمالها قائلاً :

« . . سنقوم عنهم بتلك المهمة . . كالعادة يا سيدي . . » وابتسم (ماكنزى) ابتسامة صفراء وهو يربت على كتف (منذر) المكتنز :

« هكذا . . أنت تعرف ما ينبغي عمله . . »

واتسعت ابتسامة (منذر) وهو يردد :

« تمام المعرفة يا سيدي !! » .

***

(4) موتوا وقوفا .. !!

لم يبتعد (سالم) بالسيارة كثيرًا ، كان يعلم أنهم سيطاردونه ، قادها لبضعة كيلومترات أوصلته إلى إحدى ضواحى بغداد المزدحمة ، تركها على حيد الطريق وذاب في الزحام ، راح يجول في الطرقات الضيقة المليئة بالباعة البائسين ، يعرضون بضاعتهم الكاسدة في يأس ، والناس يتخبطون سكارى ـ وما هم بسكارى ـ . . أثقل كواهلهم الجوع والخوف ، جيوبهم خاوية ، وعيونهم زائغة تدور ، تبحث عن الموت القادم لامحالة ليحصد أرواحهم بلا ذنب جنوه ، . . لا يدرى القاتل فيم قتل . . ولا يدرى المقتول فيم قتل . .

راح (سالم) يتصفح الوجوه ، وصورة (سعيد) لا تفارق خياله ، قسمات وجهه المستكين مرسومة على كل الوجوه ، أنّته المكتومة حين هوى ، يداه المكبلتان خلف ظهره ، ورأسه الممرغ في التراب تحت قدمي قاتله ، ينداح عجزه وانكساره ليملأ ما بين السماء والأرض . . ينكس الرءوس ويثقل الظهور ، يحكي حكاية وطن يُداس . . وطن . . كان (سعيدًا) !! انتصف النهار ، و(سالم) يدور في الطرقات . . ورأسه يدور بين أفكاره الحزينة ، بلا شعور وجد نفسه أمام ذلك البيت الرمادى المتهالك وكأن قدميه تقودانه إلى حيث يجد الراحة والسلوان ، انفتح الباب وأطل وجه (الأستاذ) ، كان قد جاوز الأربعين بقليل ،

وله شعر أشقر قد وخطه المشيب ، وعينان هادئتان بلون السماء الصافية . . تلوحان من خلف عويناته الصغيرة ، كان (أستاذًا) بحق ، يدرس الكيمياء التطبيقية بكلية الهندسة . . حيث يدرس (سالم) ، لكن طبيعة العلاقة بينهما كانت أعمق من أي علاقة عادية بين طالب وأستاذه ، كان (سالم) معروفًا . . إلى حد ما . . بميوله الثورية والوطنية ، أما (الأستاذ) فلم يكن يخطر على بال أحد أنه . . على غير ما يبدو !!

خطا (سالم) إلى الداخل بخطوات وئيدة ، لم يكن بحاجة إلى شرح ما حدث بالتفصيل . . كان (الأستاذ) يعرف كل شيء . . ربت على كتف تلميذه في حنان وقال : « لا تحسبن الله غافلاً . . . » طرق (سالم) لحظة ، ثم قال :

« لا أريد أن أموت هكذا . . للموت الذليل طعم لا أطيقه . . »

ورد (الأستاذ) :

« وللموت العزيز طعم . . أحلى من الحياة ! » .

هز (سالم) رأسه ولم يجب !!

* * *

مرت الساعات ثقيلة . . بغيضة . . فلماتتا بعث صارت مخيفة . . لم يعد (أبو سعيد) قادرًا على الانتظار ، بل لم يعد

قادرًا على احتمال سكونه ووحدته، مضى هائمًا على وجهه، من الجامعة إلى المستشفيات إلى الشوارع، يسأل كل من لاقاه عن ولده الوحيد ، قرة عينه الذى غاب عن عينه، كان الليل قد أرخى سدوله على بغداد الحزينة، حين ألفى (أبو سعيد) نفسه أمام مخفر الشرطة، خطر له أن يسأل . . ربما ساعده أحدهم ، هو يعلم بوجود (الربيعى) ، رفيق السلاح القديم ، ها هنا في هذا القسم ، لم يكن (الربيعى) شهمًا في أى زمن من الأزمان ، لكنه لن يبخل بالمساعدة على أى حال، دلف (أبو سعيد) إلى المبنى الكئيب . . وبعد لحظات كان يتأمل مكتب (الربيعى) الفخم، وأوسمة تزين الحوائط لا يدرى من أين حصل عليها، لقد كان نموذجًا للمقاتل الفاشل الذى لا يحسن سوى التزلف لكل كبير ، والتجبر على كل صغير ، ها هو يتلون بلون العراق الجديد . . فليكن ما يكون . . المهم أن يقوده إلى ابنه الحبيب ، دخل (الربيعى) أخيرًا . . يعرج على ساقه المصابة ، وقد شمخ بأنفه كالقادة الكبار . . استقبل رفيقه القديم ببرود ، وسأله عما يريد ، أخبره الوالد المكلوم بفقد ولده ، ومضى يقص عليه ملابسات اختفائه ، ووجه (الربيعى) جامد لا تعتريه إثارة لأي شعور ، لم ترتعد عضلة واحدة من عضلات ذلك الوجه . . حتى بعد أن أدرك أن ذلك (السعيد) كان ضمن حافلة الموت . . بل نكّس رأسه في حزن مصنوع ، وراح يخبر (أبا سعيد) بما كان وكيف أن (الإرهابيين) هاجموا حافلة تقل بعض المواطنين وأن

أولئك المواطنين يرقدون الآن في مشرحة الطب العدلى ، وربما كان ابنه ـ للأسف ـ أحدهم كان (أبو سعيد) يستمع للكلمات ، والدنيا ـ تظلم في وجهه شيئًا فشيئًا . . لا يدري كيف استطاع أن يقوم من مكانه ، وكيف خرج من ذلك المكان الكئيب . . وكيف انتهي به الأمر إلى منزله الذي تلون كل شيء فيه باللون الأسود . . كانت هناك رائحة قوية لشيء يحترق ، هو الدجاج الذي كان يفضله (سعيد) مشويًا . . أمضى (أبو سعيد) ليلته جالسًا على كرسيه . . واجمًا كالتمثال لا يبدى حراكًا ، يود لو بكى . . لكنه لم يكن يعرف كيف يبكى . . لم يبك في عمره قط ، في الصباح . . كان الأب الثاكل ـ مع العشرات غيره ـ أمام الطب العدلى . . ينتظرون الجثث للشروع في دفنها، كان البعض يبكى . . وأكثر الناس واجمون كأبى سعيد ، كأنما قد نفدت من عيونهم الدموع، وَسَّدَ ولده التراب ، وقام والناس يربتون على كتفيه ويحسدونه على صبره وثباته ، لم يقبل زيارات العزاء ، بل أمضى ليلته الثانية ـ كما أمضى الأولى ـ وحيدًا . . صامتًا وقبل أن تبزغ أول تباشير الفجر ، كان (أبو سعيد) قد استخرج بندقيته (الزرقـاء) نفض عنها التراب . . وثبت كاتم الصوت والتلسكوب المقرب . . أطلق رصاصة واحدة حطمت فنجان القهوة الباقى في مكانه بجانب كرسيه الهزاز ثم مضى . . .

* * *

كان (سالم) عائدًا إلى منزله، تدور في رأسه آلاف الأفكار ، كيف سيواجه والده الأعمى . . ووالدته العجوز؟ ، كيف سيخبرهم بقراره وهم الذين يعتمدون عليه في كل شيء ؟! كيف سيقنعهم بأن ولدهم الأكبر قد باع نفسه لله وقرر الالتحاق بالمقاومة المسلحة . . قرر البحث عن الموت العزيز . . عن الشهادة ؟! كان قد ترجل من الحافلة ، وراح يقترب من المنزل بخطوات وئيدة ، كانت أنوار الشفق تلفظ أنفاسها الأخيرة ، يطبق عليها الليل بكفين من ظلام ، لكن أنوار البيت كانت مطفأة . . ويخيم عليه سكون غريب . . خطا (سالم) أول خطواته عبر باب الفناء ، وحين استقرت قدمه على أول درجات السلم القصير المؤدى إلى المنزل . . اصطدمت بشيء ما . . لم يدرك (سالم) كنهه أول الأمر ، أو لعله لم يشأ أن يدرك ، لم يكن ذلك (الشيء) سوى شقيقه الأصغر (على) . . منكفئًا على وجهه ، حرّكه (سالم) فلم يتحرك . . كانت عينا (سالم) قد اعتادتا الظلام، فأبصر في ظهر أخيه ثقبًا قبيحًا ،ترنح (سالم) تحت هول المفاجأة . . راح يعدو كالمجنون في أرجاء البيت يوقد الأنوار ، ويصرخ مناديًا والده ووالدته وإخوته . . راح صوته يتردد في الأرجاء بلا مجيب ، كان الوالد والوالدة والصغير (أحمد) مكومين فوق بعضهم البعض في ركن غرفة الجلوس . . قد كممت أفواههم . . وكبلت أيديهم ، وتلقى كلٌ منهم

رصاصة في رأسه أسكتته إلى يوم الدين ، أما (رغد) الحبيبة فكانت في غرفة نومها . . مكبلة اليدين والقدمين محترقة . . لم ينج من نارها سوى كفها الممسكة بقصاصة من ورق . . عليها بقية من شعر تعشقه « موتوا وقوفًا . . لا تموتوا تحت أقدام الطغاة » كان ذلك آخر ما رآه (سالم) . . قبل أن يسقط إلى جنب أخته ، مغشيًا عليه !!

* * *

وقف (ميشيل) يرقب منزل آل سالم من مكانه بالثكنة . . وخلف ظهره كان (چورچ) جالسًا . . يترنح من أثر الخمر الرديء الذي يَعُبُّهُ عباً . . وهو يعيد ـ للمرة العاشرة ـ قصة مغامرته المجيدة ، لا تبارحه لثغته المعهودة ، وتلعثمه الواضح الذى زاده السكر سوءًا ، وأمامه جلس (مات) و(چاك) يتضاحكون مما يقول . . أو ربما منه هو شخصيًا ، كان منتفخًا كجنرال عائد من ميدان النصر . . قام (مات) أخيرًا ، وكأنما سئم سخافات (چورچ) ، خطا إلى حيث يقف (ميشيل) . . ساهمًا يتأمل المنزل البعيد ، ألقى (مات) بما تبقى من لفافته في إهمال ، ووضع يده على كتف زميله الذي لم يبدِ حراكًا ، وسأله : « ما بك يا ميشيل ؟! »..

وكأن السؤال قد أربك الأخير ، فالتفت فجأة كمن أفاق لتوه من حلم طويل ، وقال :

« لا . . لا شيء . . لا شيء . . »

أشار (مات) بيده إلى المنزل ، وكأنما يخبره بما يجول في نفسه :

« هذا البيت هناك . . كان بالأمس فقط يعج بالحركة والنشاط ، وصراخ الأطفال ، وتفوح منه رائحة الطعام المطبوخ . . والآن هو ساكن . . سكون الموت . . »

نظر (ميشيل) إلى عيني (مات) في شك . . ولم يجب . . فأردف (مات) وهو يضغط على حروفه في تؤدة :

« ميشيل . . لقد كنت معنا !! »

وحلّت لحظة من الصمت . . عاد فيها (ميشيل) يتطلع إلى المنزل كأنما ليتحاشى النظر إلى عيني زميله . . ورد بصوت خفيض وهو يهز رأسه :

« وتلك هي المشكلة !! »

رفع (مات) صوته كأنما ليسمع باقي الزملاء . . كانوا قد انفضوا من حول (چورچ) وأنصتوا إليه وهو يقول :

« أنا لا أرى أية مشكلة ، لقد هاجم الإرهابيون منزل هذا (الحمدان) ، وقتلوه هو وأسرته ، ولم نتمكن من الوصول إلى البيت إلا بعد فوات الأوان ، وسوف نبذل كل جهدنا للقضاء على أولئك الإرهابيين . . »

وصمت لحظة لينقل بصره بين وجوه المنصتين إليه قبل أن يردف في قوة :

« هذا كل ما في الأمر . . »

هز الجميع رءوسهم مؤمِّنين وكان (ميشيل) على حاله . . يتطلع إلى المنزل البعيد . . وعلى عينيه غشاوة من دموع . .

***

(5) خوذات .. وبنادق ..

مرت ثلاثة أيام قبل أن يقع الحادث الأول ، كان الجندى الأشقر (برايان) يفترش الأرض في ظل عربته المصفحة، وقد خلع خوذته وراح يلوح بها لزميله (هنرى) القادم من بعيد ، توقفت يد (برايان) فجأة ، وهوت إلى الأرض بينما تراخت رأسه متدلية من فوق رقبته ، راح (هنرى) يتأمل زميله وقد خطر بباله أنه يمزح معه ، لم يكن قد سمع أى صوت ، لكنه حين وصل إلى مكان (برايان) تسمرت عيناه على ذلك الثقب الأحمر الداكن ، المرسوم تحت فك زميله من الجهة اليسرى ، وقبل أن يدرك (هنرى) ما حدث ، وقبل أن ينطق كلمة واحدة كان هناك ثقب آخر . . أحمر اللون أيضًا . . قد ارتسم على أصل رقبته هو من الخلف ، لم يستطع أن ينطق صيحته التي نوى إصدارها . . فقد انفصل نخاعة الشوكي عن مخه فجأة . .

وتكوم فوق جثة زميله جثة هامدة أخرى . . بعد لحظات كان المكان يعج بحركة دائبة ، تم إغلاق المنطقة وتمشيطها ، وجاءت النتيجة مخيبة للآمال ، لا شيء . . يبدو أن شبحًا قد خطف روحي (برايان) و (هنرى) ، وها هي خوذتاهما معلقتان على السلاح ، بينما يعزف النشيد الوطنى الأمريكي بلحن حزين !!

ثلاثة أيام أخرى ، ووقع الحادث الثاني ، كان (بن) واقفًا هذه المرة ، محاطًا بثلاثة من زملائه يتبادلون حديثًا ضاحكًا ، ماتت ضحكته على شفتيه فجأة . . وكان لابد لها أن تموت ، وذلك لأن الحنجرة التي تصدر هذه الضحكة قد انفجرت ببساطة ودون أدنى صوت ، جحظت عينا (بن) قبل أن يخر صريعًا ، لتتكرر حكاية الإغلاق والتمشيط . . ويعود الجميع ـ كالمرة السابقة ـ بخفي حنين !

وتكررت القصة . . وتكاثرت الأسماء ، (شون) . . و(إيفان) . . و(بيلي) . . وغيرهم وغيرهم . . كلهم تحولوا تباعًا إلى خوذات معلقة على أسنة البنادق . . ونشيد وطنى حزين ، ثم صناديق مغلقة تحمل إلى أرض الوطن البعيد ، لا صوت . . لا أثر لأي إرهابي ، إصابة دقيقة . . وهدف مفضل هو الرقبة . . ورعبٌ بدأ يتمشى في قلوب جنود أمريكا . . تقابله فرحة خفية في قلوب بسطاء الشعب المقهور . . كل ذلك تم تلخيصه في كلمة واحدة راحت تنتشر على ألسنة الجميع . .

الجنود في ثكناتهم . . القادة في مراكزهم الآمنة . . البسطاء في جلساتهم الليلية . . بل ونشرات الأخبار العابرة لفضاء الأقمار الصناعية إنه . . .

(قناص بغداد)

***

كانت ثلاثة أشهر قد مرت على ذلك اليوم الحزين الذي قتل فيه (سعيد) . . أبيدت فيه أسرة (سالم) . . كان (داڤيد ماكنزي) يجلس على مكتبه في المنطقة الخضراء من بغداد ، يدفن رأسه بين كفيه، ربما ليحدّ من تضارب الأفكار في ذلك الرأس ، لقد بدأ الأمر يخرج عن إطار السيطرة . . لابد من القضاء على هذا القناص قبل أن يتحول إلى أسطورة ، لقد بدأ الرعب يتملك قلوب جنودنا ، وصرت تسمع عبارات مثل (لقد جئنا هنا لنموت) . . و(أريد العودة إلى أسرتي) . . بل إن الجنود يخشون التواجد في الشوارع ويتهربون من دوريات التفتيش في الأماكن المكشوفة . . لابد من إيجاد حل ما لهذه الكارثة !!

انطلق صوت النفير السابق لدخول سيارات القادة ، فأخرج (داڤيد) من أفكاره السوداء . . هب واقفًا ليستقبل ضيفه المهم . . إنه الجنرال (آرون همباك) قائد الفرقة **(202)** المحمولة جوًا ، والتي وصلت لتوها إلى أرض العراق للمساعدة في

القضاء على الإرهابيين فيها . . بعد كلمات ترحيب مقتضبة بدأ الاجتماع على الفور ، وكان أحد أهم موضوعات البحث هو ما كان يشغل بال (داڤيد) قبل وصول ضيفه ، كيف نواجه مشكلة (القناص) التي بدأت تكبر في بغداد ؟! تمت مناقشة حلول شتى . . درع واقى للرقبة يرتديه الجنود إلى جانب القميص الواقى . . تمشيط أوكار الإرهابيين بحثًا عنه ، إغلاق مناطق أوسع بعد هجماته . . وحتى استخدام طعم ما لاصطياده حيًا أو ميتًا . تم تحديد الاقتراحات لرفعها لقيادة الأركان وانفض الاجتماع . . كانت الشمس توشك أن تغيب . . خرج (داڤيد) مع الجنرال يودعه ، ووقف يؤدى التحية العسكرية لضيفه الأعلى رتبة ، ورد الجنرال التحية بمثلها ، وكان ذلك هو آخر ما تمكن من فعله في هذه الدنيا فلم يكد ينزل يده من مكانها ، حتى برز ذلك الثقب الأحمر القبيح من حنجرته ، وهوت جثته الضخمة فوق (داڤيد) المصعوق . . والذى توقف ذهنه عن العمل لجزء من الثانية ، بدأ بعدها في العمل ثانية ليدرك ما حدث . .

لقد نجح القناص في اصطياد فريسة أخرى . .

ويالها من فريسة !!

* * *

في تلك الأثناء . . وفي بيت رمادى من بيوت بغداد العتيقة بعيدًا عن المنطقة التي يسمونها خضراء ، كان حوار آخر يدور حول نفس المسألة التي صارت حديث بغداد كلها . . القناص . . وإذا كان الحديث عن القناص في مكتب (داڤيد ماكنزي) قد تحول بعد لحظات إلى كابوس ، فقد كان الحوار في بيت (الأستاذ) يتحول تدريجيًا إلى حلم !! كان (سالم) منصتًا إلى (الأستاذ) ، مسندًا خده إلى كفه في صمت ، بينما كان (الأستاذ) يذرع مكتبه جيئه وذهابًا، وقد نراصت من خلفه كتب المكتبة الضخمة ، كان يتحدث عن (القناص) الذى يتحول شيئًا فشيئًا إلى أسطورة وكيف نتعرف إليه ؟! . .

وكيف نضم قلبه إلى قلوبنا ، وساعده إلى سواعدنا ؟، هل يعمل وحده ؟!

لا يبدو في أى من عملياته تنسيق بين أكثر من شخص ، حتى الرصد والمراقبة لا يحتاج إليها ، فمن الواضح أنه يصوب من مسافة بعيدة ، تمكنه من الاختفاء قبل أن يتحرك العدو ويغلق المنطقة ، يبدو أن لديه سلاحًا تلسكوبيًا متطوراً ، ومن أين له بمثل هذا السلاح ؟! هل هو مقاتل من جيش العراق القديم ؟ وإن كان كذلك فما هو فكره وعقيدة قتاله الحالية ؟!

وكيف نقنعه بالعمل معنا ؟! كلها أسئلة معلقة . . معلقة بسؤال واحد كعنقود تنفرط حباته إذا تناولت عنقه . . كيف نصل إليه ؟!

كيف نعرفه ؟ إنه كالشبح . . بلا وجه ، ونحن ـ كالأمريكان ـ نريد وجهه ، وإن اختلفت غاياتنا كل الاختلاف . .

سكت (الأستاذ) فجأة ، وتطلع إلى تلميذه الجامد كالتمثال . . المحدق نحوه بعينين سارحتين في البعيد . . البعيد ، نظر إليه في عطف . . ووضع على كتفه كفًا حانية وهو يقول : ـ

« لست معى يا سالم . . »

هز (سالم) رأسه ، ورفعها إلى أستاذه وقدا غرورقت عيناه بالدموع ، لكنه مع ذلك كان يبتسم وهو يقول :

« حقًا لست معك . . .

إنني معهم . . »

كان (الأستاذ) يفهم ما يعنى . . سكت (سالم) لحظة ثم أردف :

« أنظر إلى (رغد) وهي تلهو بين أشجار الجنة . . كعصفور أخضر الجناحين ، ومن حولها (أحمد) . . و(على) ، ووالدى ووالدتي . . كلهم يحيطون بها . . » سكت (سالم) مرة أخرى وعاد يحدق في الفراغ وهو يقول :

« لكنني مع ذلك أسمع ما تقول . . بل ولديّ فكرة . . »

جلس (الأستاذ) مقابلاً لتلميذه . . وراح يصغى إلى فكرته

وبيد مترددة ، وأخرى تقبض على السلاح ، فتح (أبو سعيد) باب الشرفة ببطء ، بينما أماط (سالم) اللثام عن وجهه ، فبدا هادئًا راضيًا تعلوه مسحة من حزن ، تحقق (أبو سعيد) من ملامحه ، فأرخى يده الممسكة بالسلاح ، وأعطاه ظهره دون كلمة أخرى ، خطا (سالم) إلي الداخل في صمت ، وبعد لحظة كرر سؤاله :

« ألم تذكر وجهى يا (أبا سعيد) ، أنا (سالم) . . الصديق التي كنت تحذر ولدك منه ، وتأمره بالبعد عنه خوفًا عليه من بطش الشرطة والأمريكان !! » راح (أبو سعيد) ينكت في الأرض بعصا صغيرة في يده . . مطرقًا . . ولمعت عيناه بدمعة خفية وهو يقول : ـ

« . . لكنهم قتلوه رغم ذلك !! »

هز (سالم) رأسه قائلاً : ـ

« نعم . . قتلوه يا أبا سعيد ، ما عدت تخاف عليه بعد اليوم » .

جمدت يد (أبو سعيد) على عصاه ، وقال دون أن يرفع رأسه :

« ما عدت أخاف على شيء . . ولا من شيء !! » .

قال (سالم) :

« ولذا أتيتك يا (أبا سعيد) !!» .

ولأول مرة رفع (أبوسعيد) رأسه إلى محدثه ، والتقت عيناهما !!

* * *

أفكار كثيرة متضاربة تتصارع في ذهن (ميشيل) ، يخطو بخطوات مترددة مرتعشة نحو مركز القيادة الذى لم يدخله من قبل قط ، ماذا لو علم (مات) بما يصنع ؟! ، لقد توترت العلاقة بينهما كثيرًا منذ دار ذلك النقاش حول ما كان . . ولربما قتله (مات) إذا علم بأنه هو الذى أفشى سر المجموعة ، بل ربما قتله لمجرد الشك في ذلك ، ولكن . . ماذا لو سكت ؟! لربما تمت محاسبته على ذلك معهم إذا انكشف أمرهم !! وهل ستحاسبهم القيادة حقًا ؟! وهل سيعفونه من المسئولية لأنه هو الذى أبلغ عن الحادثة ؟! أسئلة كثيرة تتقافز في ذهنه وهو يخطو نحو مكتب (داڤيد ماكنزي) . . ذلك الرجل الحديدى الذى طالما سمع عنه ولم يره ، وليته ما رآه ، وجهه الجامد وعيناه الشبيهتان بعينى الفهد وذلك القرط المتدلى من إحدى أذنيه ، كلها تثير في نفس (ميشيل) من الخوف ربما أكثر مما يخاف زملاءه الذين جاء يشي بهم ، ألقى كل ما عنده دفعة واحدة ، وكأنما يخشى من نفسه أن تعود عن قرارها ، و(داڤيد) يستمع إليه صامتًا دون أن يبدو على

وجهه أي تعبير ، سكت (ميشيل) في النهاية ، وظل (داڤيد) صامتًا للحظات أخرى . . ثم قال في هدوء . . « لقد أديت واجبك أيها الجندي ، عد إلى ثكنتك . . وإياك أن تنطق بما نطقت به هنا مرة أخرى ، ولسوف نقوم بما يلزم القيام به » !!

أدّى (ميشيل) التحية العسكرية ، وخرج بخطوات سريعة وكأنه يخشى أن يراه أحد ، لقد أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً ، ويجب أن يعود إلي ثكنته قبل أن يلاحظ أحدهم طول غيابه .

أما (داڤيد) فراح يفرك يديه في عصبية أخفاها عن محدثه ، وهو يقول في نفسه : « هذا ما كان ينقصنا . . فضيحة جديدة توشك أن تطل برأسها القبيح » لم يكن قد أفاق بعد من صدمة اغتيال الچنرال (همباك) ، ولا زال التخطيط لحملة جديدة تضع يده على القناص جاريًا ، لم يكن الوضع يحتمل أي تشويش ، لابد من إخفاء هذا الأمر ، لابد أن يحول بين هذه الحكاية الفجة وبين صفحات الجرائد وقنوات الفضاء ، هل ينقل هذا الجندي الثرثار إلى موقع آخر ؟! هل يعيده إلى بلاده أم يرسله إلي أفغانستان ؟! لن يحول شيء من ذلك دون ثرثرته . . ربما يحتاج إلى قطع لسانه الذي لا يميز ما يقال . . وما لا يقال !! ربما . .

***

تكررت زيارات (سالم) (لأبي سعيد) ، وتوطدت العلاقة بينهما ، ربما كان يذكر (أبا سعيد) بابنه الحبيب الذي

خطفته رصاصة الغدر ، كان (أبو سعيد) يعلم أن (سالمًا) لا يمثل نفسه بل يمثل فصيلاً كبيرًا من فصائل المقاومة ، لكنه لم يشأ الخوض في هذا الأمر ، لقد كان يعتبر المعركة معركته هو . . لن يكفيه في دم ولده دماء المئات من الأمريكان !!

ـ « أنت لا تدرى يا (سالم) ، لا تشعر بالنار التي تحرق أحشائى . . أنتم تقاتلون لأجل المبادىء . . والوطن . . والإسلام . . أما أنا فأقاتل كالوحش الجريح الذى أيقن بالهلاك . . فلا يبالى ما أصابه بعد أن أكل العدو كبده . . ونهش أحشاءه . . ليس من رأى كمن سمع . . وليس المكتوى بالنار كالناظر إليها » .

هكذا تحدث (أبوسعيد) وقد تهدج صوته . . وارتعشت يده القابضة على سلاحه ، وسرح بصره بعيدًا عبر الغيوم العالقة . . أطرق (سالم) هنيهة ، ولم يستطع أن يمنع دمعة تدحرجت على خده ثم بدأ يحكى بكلمات مرتعشة كل ما كان في ذلك اليوم الكئيب ، بدءًا بركوب الحافلة ، وفراره بها بعد مقتل (سعيد) . . وانتهاء بعودته إلى بيته ، والحال الذى وجد عليه أبويه وإخوته ، وأخته الحبيبة (رغد) ، وحين توقف ـ رغمًا عنه ـ في تلك النقطة الأخيرة ، كانت دموعه قد فاضت ، وانخرط في بكاء مرير طويل . . ولأول مرة في حياته . . انهمرت دموع (أبى سعيد) وراحا يبكيان معًا ، كطفلين فقدا في لحظة كل من لهما

في هذه الدنيا ، وقد أطبق عليهما العجز والقهر . . وفقد الأحباب ومرّ الهوان !! .

وما إن استعاد (سالم) قدرته على الكلام حتى ردّد من بين دموعه : ـ

« أرأيت يا أبا سعيد ؟! هو طريق واحد . . سعيد هو العراق . . والعراق هو الأمة . . وهو الإسلام . . لست وحدك من تكابد الآلام يا أبا سعيد . .

لست وحدك !! » .

* * *

(7) جزاءً وفاقًا !! :

بعد أيام قليلة ، كان (چورچ) ممددًا فوق أرض الثكنة ثملاً كعادته ، يسند رأسه إلي جوال من رمل ، ويغني أغنية ركيكة فاضحة ، أما (چاك) فراح يذرع الثكنة جيئة وذهابًا ، وقد بدا عليه الملل والقلق، بادره (مات) بقوله : ـ

« ماذا دهاك يا (چاك) ؟ ، هل حمل لك البريد خبرًا لا يروقك ؟! » .

أشاح (چاك) بيده في عصبية وهو يقول : « لا شيء . . لا شيء يا (مات) ، فقط تذكرت حين قرأت خطاب زوجتي . . أنني ربما لا أعود إليها أبدًا !! » .

قطع (چورچ) أغنيته معلقًا :

« هذه إحدى المزايا التي يجنيها المرء من عدم الزواج !» لم يعره زملاؤه اهتمامًا، وراح (مات) يهون الأمر على صاحبه ، ويؤكد أن الأمور هادئة في منطقتهم هذه . .

رفع (چاك) عينيه إلي زميله وقد بدت فيهما نظرة شك ، وقال :

« لكن الأمور لا تسير هكذا دائمًا . . أنت تعلم كيف نقلوا (ميشيل) فجأة إلي الحملة الماضية على (الرمادى) . . وتعلم ما حدث له هناك !! » .

لم يبد على (مات) أي ارتباك . . ولم يتحاش بنظرته الحادة نظرة صاحبه ، التقت عيناهما برهة قبل أن يجيب (مات) في عدم اهتمام وهو يمط شفتيه « هذه الأمور تحدث أيضًا ، لقد كان (ميشيل) جنديًا صالحًا . . فلتباركه السماء !! » .

أشاح (چاك) بنظره إلي الفضاء وهو يقول :

« أجل . . هذه الأمور تحدث دائمًا للصالحين . . تختارهم السماء سريعًا !! » .

مرت لحظة من الصمت ، حاول (مات) بعدها أن يقول شيئًا ، لكن نظرته التي لم تزل مثبتة على زميله (چاك) قد لمحت فجأة ذلك الثقب القبيح بنبثق علي رقبته كأنما ينشأ من عدم ، وفي جزء من الثانية كان (مات) قد أدرك ما يحدث ، إنه

القناص، انبطح أرضًا وهو يصـرخ في كل زمـلائه أن يفـعلوا فعله، وراح يقسـمهـم علي زوايا الثكنة محاولين التصويب نحو النقطة التي انطلقت منها الرصاصة القاتلة ، لم يخطر لأحدهم أن يلتفت خلفه، ولو قدر لأحدهم أن يفعل لهاله مرأى ذلك الشاب بما يبدو على قسماته من غضب هائل، يعدو نحو الثكنة كطائر جارح ينقض على فريسته . . وفي يده قنبلة يدويه نزع فتيلها للتو وأرسلها في الهواء وقد عرفت طريقها إلى قلب ثكنتهم، ودوى الانفجار ممزقًا أشلاء الجنود ، كان (مات) هو أول من أفاق من هول الصدمة الثانية، كان جرحة بليغًا وقد أطاحت شظية من قنبلة (سالم) بساقه اليمنى بعيدًا ورغم النزيف المتدفق من مكانها فقد أمسك بمسدسه محاولاً تصويبه نحو (سالم) ، لكن الرصاصة التالية من رصاصات القناص قد استقرت في رسغه تماماً ، فهوى المسدس إلى الأرض ، وزاغت عيناه وهو يرى (سالمًا) يقترب ويقترب ، يغدو ماردًا هائلاً يسد الآفاق ، كان يعرفه . . إنه شقيق الفتاة الذى كان غائبًا يوم اغتصبوها ، ليتهم قتلوه مع عائلته ، ليتهم قتلوه. . وبوجه جامد كالحجر راح (سالم) يصب على أجساد الجنود - أو ما تبقى منها - سائلاً نفاذ الرائحة ، وكالعادة أدرك (مات) ما يحدث سريعًا ، ولأول مرة تخونه صلابته ، وترتعد أعماقه هلعًا من مصيره الماثل أمامه، كان (چورچ) قد أفاق من سكره ، وراح يولول ضارعًا

كي لا يقتله أحد ، رماه (مات) بنظرة اشمئزاز ، ولم يلبث (سالم) أن ألقى بعود ثقابه الملتهب ، فاستحالت الثكنة جحيمًا تتصاعد منه رائحة اللحم المحترق . . تعالى عويل (چورچ) . . وتعـالى . . ثم بدأ يخفت رويدًا رويدًا . . وأخيراً لف المكان صمت رهيب ، لا تسمع فيه سوى وقع أقدام (سالم) المبتعدة . . وهمس شفتيه وهو يرد : « جزاء وفاقًا » .

ومن بعيد . . أطلّت عينا (أبى سعيد) ،وارتسمت على شفتيه ـ لأول مرة منذ قتل ولده ـ ابتسامة رضا . .

* * *

لقد كان (الأستاذ) على حق . . إنها عملية خطيرة . . المنطقة مكشوفة لا تساعد على التخفى ، ومحاولة الانسحاب إلى أحياء بغداد المزدحمة محفوفة بالمخاطر ، فمن المؤكد أن الطوق الأمريكى سيكون أقوى ما يكون في هذه الناحية ، كان قرار الانسحاب إلى الرمادى هو الأصوب . . وهكذا أسرع (أبو سعيد) و (سالم) نحو الرمادى بواسطة سيارة كانت بانتظارهم . . وهناك في مكتب (داڤيد ماكنزي) ، كان (منذر الربيعى) يخطو داخلاً وقد طأطأ رأسه في خزى، واجتهد في إبداء كل أمارات الحزن والأسى على وجهه المظلم ، وراح ينهى إلى سيده الأمريكى ملخص الأخبار غير السارة ، لقد أبيدت سرية بأكملها ومن الواضح أن للقناص يداً في العملية ، يبدو أن

القناص قد بدأ عهداً جديداً من التعاون مع المقاومة المنظمة . . وحين وصل (الربيعى) إلى رقم السرية وموقعها . . تصلب جسد (ماكنزى) ، ورمى محدثه بنظرة أدخلت الرعب في قلبه ، لقد كان يعرف تلك السرية جيداً ، كان يجب أن يعتقلهم ، ويرحلهم إلي بلادهم أو حتى ينقلهم إلي أي موقع آخر ، لقد أخذ العراقيون بثأرهم . . لم ينتبه (ماكنزى) من أفكاره إلا على كلمات (الربيعى) الأخيرة ، تلك التى أخرجته من اليأس إلي الأمل . . لقد نجحنا في اقتفاء أثر القناص . . لقد اتجه نحو الرمادى . . صحيح أنه ذاب في شوارعها قبل أن ننسفه . . لكنه في الرمادى . .

وهذا يكفى . .

(سنمحو هذه الرمادى من الخريطة . . ومعها . . سنمحو اسم القناص) . .

هكذا ردد (ماكنزى) . .

كوحش أمسك بفريسته أخيراً !!

* * *

(8) تحت الحصار :

ما إن دخل (سالم) إلي ذلك البيت المتواضع في الرمادى . . حتى أرخى لثامه . . وسأل عن القبلة ثم سجد سجوداً طويلاً . . وكذا فعل (أبو سعيد) فلما قاما ربّت (أبو

الفداء) على كتفيهما وهو يقول في اعتزاز . . « الحمد لله على سلامتكما . . وعلى ما وفقتم إليه من النكاية بالعدو . . » .

كان (أبو الفداء) رجلاً متين البنية ، ربعة . . يبدو في عمر (أبى سعيد) أو أقل قليلاً ، إنه المسئول عن استقبال صاحبينا وإيوائهما في الرمادى حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً ، ابتسم (سالم) ابتسامة حزينة وأطرق قائلاً : « وهل يعيد الثأر الأحباب يا أخى ؟! » .

ورد (أبو الفداء) مشجعًا : ـ

« لا يا (سالم) . . الأحباب عند الله قد اختارهم لكرامته ، أما الثأر فيردع الأعداء ، ويحمى النساء والأطفال من عبثهم ، حين يعلمون أن في هذه الأرض من يحميها ، ويثأر لضعفائها ونسائها وأطفالها . . » .

وبعد لحظة من الصمت . . أطلّت نظرة غريبة من عينى (أبى سعيد) وهو يقول :

« ربما أشعر ببعض الحسد نحوك يا سالم !! . . أو قل إننى أغبطك على ما نلت من ثأر عائلتك . . » .

رد (سالم) سريعًا :

« في ثأرهم ثأر لولدك يا أبا سعيد . . فلولا هؤلاء المجرمين ما قتل سعيد ولا غيره »

« لكن سعيدًا قتل بأيدى عراقية يا (سالم) بأيدي أبناء هذا الوطن !! » .

ورد (أبو الفداء) في حماس :

« أولئك أذناب العـدو يا (أبا سـعيـد) . . من باع نفسـه لأعداء الله فليس منا ولسنا منه . . » .

مط (أبو سعيد) شفتيه وهو يقول : ـ

« وتلك هي القضية يا أبا الفداء . . العدو هو العدو . . أما الأذناب فكيف تعرفهم ؟! كيف نميز من منا ومن ليس منا ؟! من خرج مكرهًا ممن خرج طائعًا ؟! لقد كنت أشعر مع كل أمريكى أقتله أننى آخذ بثأر ولدى . . أما الآن فأشعر أن الأمريكان يتشفون منى . . يقولون (قتله أبناء جلدتك . . فما ذنبنا نحن ؟! . .

وفي تلك اللحظة ، دلف إلي البيت شاب ملثم ، وراح ينهى إليهم ما عنده من بين أنفاسه المبهورة . .

لقد حاصروا الرمادى !!

* * *

استمر القصف طوال الليل . . ولم تطلع تباشير الفجر إلا وقد تحولت (الرمادى) إلى أطلال وركام ، لكن أبطال المقاومة كانوا صامدين . . ينتقلون بين أنقاض البيوت . . ويبرزون من

هنا وهناك . . ليرسلوا الموت إلي أعدائهم . .

« لقد بقيت المهمة الصعبة . . »

هكذا تحدث (ماكنزى) إلى مساعده (الربيعى) حين أسفر الصبح وكان الأخير على أهبة الاستعداد . . أعلم يا سيدى . . علينا أن نمشط أنقاض المدينة ونقضى على من فيها من الإرهابيين» .

رفع (ماكنزى) إصبعه محذرًا وهو يقول :

« أريد (القناص) يا منذر . . أريده حيًا أو ميتًا !!

وابتسم (الربيعى) وهو يقول :

« لا أظنه سيكون (حيّا) يا سيدى . . »

وابتسم (ماكنزى) مشجعًا قبل أن يعود إلي مقر قيادته الميدانى ، بينما راح الربيعى ينظم صفوفه . . ندّت صرخة من أحد جنوده فجأة ، وهو يشير إلي ساقه التي استقرت بها رصاصة صامتة . . إنه القناص يعلن عن نفسه إذن . . ولكن متى كان هدفه السيقان ؟! لقد كان لا يعدو الرأس والرقبة !! . . أسرع (منذر) يرتدى دروعه . . ويستقل دبابته الأمريكية . . هذه العملية هي فرصته الكبيرة ، إذا استطاع القضاء على هذا القناص فسوف ترتفع أسهمه عند الأمريكان . . وربما نال منصبًا كبيرًا في الجيش !!

وعلى الجانب الآخر ، كان (أبو سعيد) يعد سلاحه لهدف جديد ، بينما كان (سالم) إلي جانبه يسأل نفس السؤال الذى خطر على بال (الربيعى) ، « لماذا صوبت على ساقه ؟! »

لم ينظر (أبو سعيد) إلي محدثه وهو يردّ : « سيقان العراقيين أغلى من رقاب الأمريكان !! » .

وابتسم (سالم) رغمًا عنه وهو يقول « وماذا ستفعل في هذا الذي يطل عليك برأسه ورقبته من دبابة أمريكية لا تنالها رصاصاتك ؟! » .

وحدّق (أبو سعيد) عبر منظار البندقية إلي حيث يشير (سالم) ، وتجمدت الدماء في عروقه . . إنه (منذر الربيعى) . . رفيق سلاحه في الزمن القديم . . لقد كان نذلاً . . نعم . . ولكن أيكفى هذا مبررًا لقتله ؟!

لقد وضع نفسه في خدمة الأعداء . . فهو منهم . . أحكم (أبو سعيد) تصويبه . . تردد لحظة . . كانت كافية لينتبه (منذر الربيعى) إلي الضوء الأحمر الخافت المنبعث من بندقية (أبى سعيد) ، ويلقى بقنبلة كانت في يده نحو مصدر الضوء . . وفي نفس اللحظة كان (سالم) قد تبين من موقعه ملامح (منذر) وصاح فجأة . . « إنه هو يا أبا سعيد . . إنه قاتل ولدك . . » .

لكن صوته قد ضاع في صوت الانفجار ، ذلك الانفجار

الذى مزق جسد (أبى سعيد) . . وألحقه بولده الحبيب في ملكوت السماوات ، بينما أصاب (سالم) بشظية في ساقه ، لم تمنعه من أن يحبو نحو جثمان (القناص) ، ليلتقط بندقيته (الزرقاء) . . ويصوبها بكل ما أوتى من قوة . . ومن غضب ، نحو وجه (الربيعى) الذي ارتسمت عليه ابتسامة الانتصار . .

ويطلق النار . . .

* * *

(9) خاتمـة :

رفع (أبو سعيد) رأسه نحو إخوانه ، يحدقون فيه بأنفاس مبهورة ، وقد أحاط به ولده (سعيد) ورفيق كفاحه (سالم) ، وسادت لحظات من الصمت ، ألقى بعدها (غازى) بسؤاله :

« وماذا حدث لهذا (الربيعى) ؟! » .

رد (سالم) بسرعة :

مزقت وجهه برصاصتى طبعًا . . لقد نسى (أبو سعيد) أن يخبركم أنه قد دربنى على القنص خلال الفترة التي قضيناها معًا في صفوف المقاومة . . » وأردف (الورداني) ضاحكًا :

« لقد استشهد (القناص) . . وخلّف وراءَهُ قناصًا آخر . . كان له باعٌ طويل فيما سيكون من أيام !! » .

ابتسم غازى قائلاً :

« أعلم يا أخى الحبيب . . وما عن هذا سألت . . إنني أسأل عما حدث لهذا (الربيعى) بعد هلاكه . . ماذا فعل الله به ؟! »

وأطرق (أبو سعيد) لحظة ثم غمغم :

« فعل به ما يستحقه . . ليس هذا شأننا إنما هو شأنه ـ سبحانه ـ » .

وبعد لحظة تململ (سالم) قائلاً : ـ

« لقد شوقتني إلى عائلتي بقصتك يا (أبا سعيد) سأعود إلى قصرى الآن لأجالس أبى وأمى . . وأنشد الأشعار مع (رغد) وألعب مع (أحمد) و (على) . . لأؤكد لنفسى أنني لن أفقدهم مرة أخرى . . سنعيش في سعادة وحبور . . إلى أبد الآبدين !!» .

وتعانق الإخوان . . وتفرقوا كلٌ إلى قصره . . وقد أحاط (أبو سعيد) كتفى ولده بذراعه . . وسارا معًا في مروج الجنان ، يتأملان زهورها . . وأشجارها . . ويستمعان إلي خرير المياه في جداولها الحالمة . .

ونادى(أحمد الورداني) إخوانه قائلاً :

« كونوا على الموعد . . »

فأمامنا قصة جديدة . .

ويوم آخر من أيام الله في الدنيا . .

يوم دفع الله فيه عن بيته العتيق كيد الكائدين . .

وعدوْ المعتدين . .

إنه يوم الخسف . . .

وما يوم الخسف ببعيد !!

* * *

العدد القادم

« خسف بجزيرة العرب »

تمت بحمد الله

محمد عبد الحكيم

طنطا 30/ 11/ 2006م

التاسع من ذى القعدة 1427هـ